

ظُهُورِ الْمَعَاصِي وَفُشُوِّ الْمُتَكْرَرَاتِ

الشيخ/ عبد الكريم الخضير

قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: **((إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا))** يعني إذا عمَّهم الله بعذابٍ؛ لظُهُورِ المعاصي وفُشُوِّ المُتَكَرراتِ؛ استحقَّ النَّاسُ العذابَ العامَ - نَسألُ اللهَ العافيةَ - كما قال النبي -عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ- في الحديثِ، لما قيل له: **((أَنْهَلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: ((نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ))**)، وهؤلاء الصَّالِحُونَ يُبْعَثُونَ على نِيَّاتِهِمْ، يعمُّهم العِقَابُ، فَيَمُوتُونَ مع النَّاسِ؛ لَكِنَّهُمْ يُبْعَثُونَ على نِيَّاتِهِمْ، فَإِذَا جَهَرَ النَّاسُ بِالْمَعَاصِي من غير نكير أصاب الجميع العذابَ، ثُمَّ بُعِثُوا على نِيَّاتِهِمْ، إِنْ كَانَتْ صَالِحَةً هَذِهِ النِّيَّاتِ؛ فَالْعُقُوبَةُ صَالِحَةٌ؛ وَإِلَّا فَسَيِّئَةٌ، كَذَلِكَ الْعَذَابُ طَهْرَةٌ لِلصَّالِحِ، تَكْفِيرٌ لِمَا حَصَلَ مِنْهُ مِنْ تَقْرِيطٍ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَنِقْمَةٌ عَلَى الْفَاسِقِ، أَخْرَجَ ابْنُ حَبَّانٍ وَابْنُ بَيْهَقٍ عَنِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- مَرْفُوعًا: **((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَنْزَلَ سَطْوَتَهُ بِأَهْلِ نِقْمَتِهِ، وَفِيهِمُ الصَّالِحُونَ قُبِضُوا مَعَهُمْ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى نِيَّاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ))** وفي السُّنَنِ الْأَرْبَعِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يقول: **((إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُتَكْرِرَ، فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يعمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ))**، هَذَا يُبَيِّنُ أَهْمِيَّةَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَأَنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يَرْفَعُ بِهِ الْعَذَابَ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ تَفْضِيلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَخَيْرِيَّتِهَا **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** لماذا؟ لأنكم عرب؟! بسببٍ واحدٍ **{تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}** [آل عمران / 110]، ولماذا لُعِنُوا بنو إسرائيل؟ **{كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَعَلَوْهُ}** [المائدة/79] هذا أمرٌ في غاية الأهميَّةِ حَتَّى عَدَّهُ جَمْعٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ سَادِسَ الْأَرْكَانِ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَهَذِهِ الْفِئَةُ الْمُكَلَّفَةُ بِهَذَا الْأَمْرِ الدِّينِ هُمْ أَهْلُ الْحِسْبَةِ مِنْ قِبَلِ وَلِيِّ الْأَمْرِ لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يَرْفَعُ بِسَبَبِهِمُ الْعَذَابَ؛ لَكِنْ قَدْ لَا يَصْدُرُ بِهِمُ الْوَاجِبُ لِكثْرَةِ الْمُتَكَرراتِ! فَيَتَعَيَّنُ عَلَى جَمِيعِ مَنْ رَأَى مُنْكَرًا أَنْ يُغَيِّرَهُ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَى أَهْلِ الْحِسْبَةِ، كُلُّ شَخْصٍ كُلِّ مُسْلِمٍ يَتَّجِهُ إِلَيْهِ الْخِطَابُ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ مُكَلَّفَ بِقَوْلِهِ -عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ-: **((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ))** التَّغْيِيرُ لَا بُدَّ مِنْهُ؛ لَكِنْ عَلَى حَسَبِ الْقُدْرَةِ وَالطَّاقَةِ **((بِيَدِهِ))** رَتَبَةٌ أُولَى، وَهَذَا يَسْتِطِيعُهُ -بِالنِّسْبَةِ لِعمُومِ النَّاسِ- وُلاةُ الْأُمُورِ وَبِالنِّسْبَةِ لِمَنْ تَحْتَ الْيَدِ مِنَ النِّسَاءِ وَالدَّرَارِيِّ وَالْأَتْبَاعِ يَسْتِطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ وَلِي الْأَمْرِ الْخَاصِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ يُنْتَقَلُ فِيهِ إِلَى الرَّتَبَةِ الثَّانِيَةِ وَهِيَ اللِّسَانُ، عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُغَيِّرَ **((فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَيَلْسَانِهِ))** وَاللِّسَانُ بِالْأَسْلُوبِ الْمُنَاسِبِ، بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي لَا تَهْيِبُ وَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ أَمْرٌ مُنْكَرٌ عَظِيمٌ، يَسْتِطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُغَيِّرَ الْكَثِيرَ مِنَ الْمُتَكَرراتِ، وَلَوْ تَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى الْإِنْكَارِ؛ لَمَا تَتَابَعَ أَهْلُ الْمَعَاصِي عَلَى عِصْيَانِهِمْ! لَحَقَّتْ هَذِهِ الْمُتَكَرراتُ؛ بَلْ انْقَطَعَ دَابِرُهَا؛ لَكِنْ تَوَاطَأَ النَّاسُ عَلَى السُّكُوتِ، وَهَذِهِ صَرَائِبُ السُّكُوتِ! يَنْتَشِرُ الْمُنْكَرُ بِحَيْثُ يَكُونُ مِمَّا عَمَّتْ بِهِ الْبُلُوى؛ لَكِنْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ أَوَّلَ مَا بَدَأَ أَنْكَرَ، ثُمَّ ظَهَرَ ثَانِيَةً أَنْكَرَ، وَثَالِثَةً، وَهَكَذَا، بِحَيْثُ لَا يَرَاهُ مُسْلِمٌ إِلَّا أَنْكَرَهُ؛ مَا انْتَشَرَتِ الْمُتَكَرراتُ بِهَذَا الْمُسْتَوَى! مَا ظَهَرَتِ الْفَوَاحِشُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ! مَاذَا تَجَنَّبِي مِنَ الْمَوَاطِئَةِ عَلَى السُّكُوتِ؟! نَجْنِي الْعُقُوبَةَ الْعَامَّةَ - نَسألُ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يُلْطِفَ بِنَا - **((إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابَ مَنْ كَانَ فِيهِمْ))** يعني مِنَ الصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ، كُلُّ يُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ مِنْ نِيَّةٍ وَعَمَلٍ، وَالنَّاسُ إِزَاءَ الْمُتَكَرراتِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ -كَمَا بَيَّنَّ اللَّهُ- جَلَّ وَعَلَا- مِنْهُمْ مَنْ يَقَعُ فِي الْمُتَكَررِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكَرُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْكُتُ، **{وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَنِيْسٍ}** [سورة الأعراف]، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُتَكَررَ سَالِمٌ،

القِسْمُ الثَّلَاثُ الَّذِي سَكَتَ، يقول: بعضُ السَّلَفِ أَنَّهُمْ سَكَتُوا فَسَكَتَ عَنْهُمْ، **{أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ}** [165] سورة الأعراف] هؤلاء الَّذِينَ يَنْهَوْنَ **{وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَئِيسٍ}** بقي القسم الثَّلَاثُ فهم سَكَتُوا يقول بعضُ السَّلَفِ فَسَكَتَ عَنْهُمْ، والصَّحِيحُ أَنَّهُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَكَتُوا مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِنْكَارِ مَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا؛ لِأَنَّ عَدَمَ إِنْكَارِ الْمُتَكْرِ ظُلْمٍ، فَهُمْ دَاخِلُونَ فِي الظَّالِمِينَ، الْحَدِيثُ فِيهِ التَّحْذِيرُ الشَّدِيدُ وَالْوَعِيدُ الْأَكِيدُ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ سَكَتَ عَنِ النَّهْيِ، فَكَيْفَ بِمَنْ دَاهَنُ؟! فَكَيْفَ بِمَنْ رَضِيَ؟! فَكَيْفَ بِمَنْ أَعَانَ؟! يَعْنِي يَسَّرَ أَسْبَابَ انْتِشَارِ الْمُتَكْرِ، هَذَا أَمْرُهُ أَعْظَمُ، هَذَا شَرِيكُ، فَكَيْفَ بِمَنْ بَرَّرَ وُجُودَ الْمُتَكْرَاتِ؟! نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.